

هو العليم

محاضرة حول

الدعاء

ليلة التاسع عشر من شهر رمضان

سنة ١٣٩٧ هجرية قمرية

في

مسجد القائم

سماحة العلامة الزَّحَل

آية الله الحَاجِّ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ الْحُسَيْنِ الْحُسَيْنِيِّ الطَّهْرَانِيِّ

فاضلنا وعلينا من بركات نفسه القدرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على أشرف السفراء المكرّمين خاتم الأنبياء والمرسلين
حبيب إله العالمين أبي القاسم محمّد وعلى آله الطّيبين الطاهرين
ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين...

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۗ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ^ط
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۗ% صلّوا على محمّد وآل محمّد..
من الأمور التي لا شكّ ولا ريب فيها الدعاء، الدعاء عبادة، وروح
الدين العبادة، وروح العبادة الدعاء، الدعاء هو اتّصال قلب الداعي بالمبدأ
الأعلى، والطلب منه لتحقيق ما يريد ويحتاجه.

يقول الله عزّ وجلّ في هذه الآية ^ط وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۗ^ط
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۗ%^(١)

(١) سورة البقرة (١) الآية ١٨٦.

أي فليتوجّهوا إليّ وليسألوني فأنا أعطيهم، وهذا هو طريق الرشد والسعادة.

ورد ضمن الأحاديث المأثورة عن الأئمة عليهم السلام مطالب كثيرة في باب الدعاء، وكلّها تدور حول أمرٍ واحد ألا وهو الخلوص، فيجب أن يكون قلب الداعي طاهراً أثناء دعائه، وأن يكون الدعاء من القلب بحيث يكون القلب مطهراً ومنزهاً عن أيّ كدورة أو تزوير، حينئذٍ يكن هذا الدعاء مستجاباً، وفي يوم من الأيام قد استقصيتُ شروط الدعاء الواردة في الروايات فوجدتها أربعة وعشرين شرطاً، فمن الشروط: أن يكون الإنسان متوضّئاً.

وأن يجلس الإنسان اتّجاه القبلة (أي يقابل القبلة).

أن يصوم ثمّ يصلي ركعتين وبعدها يدعو، أو يصوم ثلاثة أيام ثمّ يصلي ركعتين.

أن يصلي على محمّد وآل محمّد في أوّل الدعاء وآخره، لأنّ الصلاة على محمّد وأهل بيته هي دعاء في حدّ نفسها، والله العليّ الأعليّ يستجيب هذا الدعاء لأنّه عبارة عن صلاة وتحيّة لأفضل أفراد عالم الوجود، والله يستحيي أن يستجيب أوّل الدعاء وآخره دون أن يستجيب ما بينهما من الدعاء.

ومن شروط الدعاء أن يدعو الإنسان مع جماعة من الناس، بأن يدعو أحدهم والآخرين يؤمّنون [يقولون: آمين]، فهذا النوع من الدعاء يحبه الله، بحيث يجتمع فيه المؤمنون ويسألون الله بكلمة واحدة مع كونهم متّحدين في القلوب، فالدعاء بهذه الكيفيّة قريب الإجابة.

ومن شروط الدعاء أن يبكي الإنسان أثناء دعائه، فالله يحبُّ بكاء عبده، وعلى هذا ورد في الرواية أنه إذا لم يمكنه البكاء فليتبكك وليتحرّز، لأنَّ الله تبارك وتعالى يقول: أنا عند المنكسرة قلوبهم، فالقلب الذي فيه تكبر ليس محلاً لله، فهذا القلب لا يتوقَّع إجابة الدعاء.

ومن شروط الدعاء أنه إذا كان هناك جماعة يجب أن يدعون بصوت عالٍ ويؤمنون، وأمّا إذا كان الداعي وحده فإنه يخفي صوته، وعلى هذا الأساس تارة يعبرون عن الدعاء بالمناجاة، وذلك إذا كان الداعي شخصاً يدعو بمفرده، وأخرى يعبرون عنه بالنداء، وذلك فيما لو كان هناك أفراد مجتمعون ويدعون الله وينادونه، وقد وردت هذه التسمية في الروايات أيضاً.

ومن جملة شروط الدعاء أن يطهر قلبه من عداوة أخوانه المسلمين، وإذا كان يشعر بشيء من العداوة في نفسه أتجاه أحد، أو حقدٍ أو غلٍّ في قلبه، فليطهر قلبه من ذلك، فعليه أن يكون قلبه في وقت الدعاء خالياً من الكدورة والحقد على أحد من أخوانه، سواء كانوا من أقربائه أم أصدقائه، بل عليه أن يفوض الأمر إلى الله.

ومن جملة الشروط أيضاً أنه لو كان عليه دين فليؤدّه، فشرط الدعاء أن يؤدِّي حقَّ الناس أولاً، وإذا لم يقدر على أدائه فليرضه ويسأله المهلة، والأجل حتّى يتمكّن من الأداء، ولو لم يتوفّر له استرضاء الدائن، فليعزم على أداء حقّه فور تمكّنه وحين السعة.

ومن شروط الدعاء التوسّل بالنفوس والقلوب الطاهرة، كقلب النبيّ والإمام وأولياء الله، وعلى هذا الأساس يكون الدعاء مستجاباً عند قبور

العلماء. والروايات الموجودة لدينا تفيد أنّ الدعاء مستجاب في حرم الأئمة، لأنّ الإنسان يتوجّه في ذاك المكان ويقبل إلى قلب الإمام عليه السلام، وقلب الإمام رحبٌ و واسع جداً^١ تُؤْتَى أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا%^(١) فالإمام هو الكلمة الطيبة التي ملأت فروعها السماء، وسماء الرحمة متصلة بالإمام من كل الجهات، فحينما يلتمس الإنسان من الله شيئاً ويدعوه ويشفع الإمام عليه السلام فإنّ الله العليّ الأعلى يعطيه.

ورد في الرواية التي ذكرناها اليوم عن صلاة الحاجة، أنّ عبد الرحيم القصير حيث يروي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه كان عنده فقال:

قلت له: إنّي اخترت دعاءً فقال: دعني من اختراعك، إذا نزل بك أمر فافزع إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وصلّ ركعتين تهديهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، قلت: كيف أصنع؟ قال: تغتسل وتصلّ ركعتين..^(٢) (بتلك الطريقة التي ذكرت).

ثمّ تقول بعد ذلك: اللهمّ إنّي أسألك بنبيك نبيّ الرحمة يا محمّد يا نبيّ الله إنّي أتوسّل إليك إلى الله!^(٣) وتشتمل هذه العبارة على معاني كثيرة،

(١) سورة إبراهيم (١٤) صدر الآية ٢٥.

(٢) الكافي الجزء ٣ صفحة ٤٧٦.

(٣) وهو ناظر الدعاء المأثور: اللهمّ إنّي أسألك وأتوسّل إليك بنبيك نبيّ الرحمة يا محمّد يا رسول الله إنّي أتوسّل بك إلى ربّي في حاجتي ليقضها لي اللهمّ فشفعه بي!

وكذا ما ورد في عبارة مصباح الكفعمي: اللهمّ إنّي أتوجه إليك بنبيك نبيّ الرحمة يا محمّد يا رسول الله إنّي أتوجه بك إلى الله ربّي وربّي لينجح لي بك طلبتي... [المصباح للكفعمي صفحة ٥٢٧]

وكذلك ورد شبيهه في مستدرك الوسائل ٦: ٣٩٠ وكذلك مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي صفحة ٣٣١

فهي تعني: قل يا رب أسألك ببركة النبي وشفاعة النبي، وبوسيلة النبي، يا نبي الله يا رسول الله! أنا أسألك، ولكن أجعلك وسيلة للدعاء والسؤال، وعلى الإجمال الله هو المسؤول، ولكنني أدعوه بواسطة حقيقة رسول الله وعن طريقه، وهذا هو المطلوب والمهم، وهو شيء مؤكدٌ عليه جداً جداً، وهامٌ جداً جداً.

إن أكثر الدعوات التي تستجاب هي من هذا الطريق، وبهذه الكيفية، فالإنسان يستشفع من ولي الله الذي قلبه طاهر ومطهر، فيجعله بينه وبين الله، والله العلي الأعلى يتلطف ويترحم عليه من تلك الناحية.

يروى السيد ابن طاووس زيارة خاصة، وذلك بأن يدخل الزائر في حرم الأئمة عليهم السلام ويشعر بقراءتها، فيأتي الزائر ويدخل الحرم من جهة الرأس، ثم يقرأ بعض الكلمات المشتملة على هذه المضامين وهذه المفاهيم:

... فها أنا ذا مستجير بكرم وجهك وعز جلالك، متوسل إليك متقرب إليك بأحبّ خلقك إليك، وأكرمهم عليك وأولاهم بك، وأطوعهم إليك، وأعظمهم منزلة ومكانا عندك محمد وعترته الطاهرين الأئمة الهداة المهديين، الذين فرضت على خلقك طاعتهم، وأمرت بمودّتهم وجعلتهم ولاة الأمر... إذ كانت القلوب إليك بالجميل تشير.^(١)

وغيرها.

وفي هذه الحالة يستجاب الدعاء، وهذا أيضاً من شروط الدعاء.
ونحن حائزون على أكثر الشروط التي ذكرتها لكم، أولاً: كلنا متوضّئون، وثانياً: صائمون، فهي أيام شهر رمضان وصمنا لله لا لغير الله، وقد صلينا أكثر من ركعتين، وأما من جهة الوقت، فهو أفضل الأوقات لأنها ليلة القدر المشرفة على كل ليالي السنة، وأما من ناحية المكان، فإن لهذا المكان شرف خاص فهو مسجد وبيت الله، وهو الذي دعانا إلى بيته ونحن نلوذ به ونسأله، ومن المحتم أنه يجيب ضيوفه، ويستجيب دعاءهم، وكذلك كلنا متحدون ومجتمعون على هذا الدعاء الواحد، وبذلك تنضمّ القلوب وتتحد بعضها إلى بعض، وهو عامل مؤثر في استجلاب الرحمة الإلهية.

ومضافاً إلى ذلك، من كان عليه دينٌ أو حقٌ فليعزم الآن على تأديته، أو لو كان في قلبه حقدٌ على أخوانه المؤمنين، فليفوّض أمره إلى الله ويتوكّل عليه، لأنّ الله أقدر على ذلك، ونحن لا يسعنا أن نملاً قلوبنا حقداً على أخواننا المسلمين؛ لا من ناحية العمر، ولا من الناحية الروحية ولا الزمان، لأنّ الحقد والعداوة تثقلنا وتتعبننا، وتوقفنا عن العمل... لذلك نفوّض الأمر إلى الله، وهو العالم. فلماذا نحن نثقل أرواحنا؟ والله أفضل المنتقمين، فعلى هذا، نظهر الآن قلوبنا من كلّ حقد حتّى يستجاب دعائنا الذي ندعوه.

ومن جهة أخرى، نشفع أمير المؤمنين فهو القلب، وقلب أمير المؤمنين وروحه أوسع بكثير، لأنه وليّ الله ووصيّ رسول آخر الزمان، فقلبه واسع كثيراً، وولايته أقوى بكثير، وهذا المقام الذي أعطي لأمر

المؤمنين ليس مقاماً اعتبارياً، بل الله جعل خصوصية معينة في وجوده المقدس حتى أمكنه تحمّل هذه العلوم الوفيرة والقدرات الهائلة، وكلّ المصائب والمحن والفتن الذي حلّت بالأنبياء قد حاز عليها أمير المؤمنين، لأنّ جميع ما ابتلي به الأنبياء قد ابتلي به رسول الله في آخر الزمان، ثمّ ورث أمير المؤمنين جميع تلك المصائب والفتن من رسول الله. ومن ناحية أخرى، فإنّ كلّ ما ظهر من المعاجز على أيدي الأنبياء قد ظهر على يدي رسول الله ثمّ أمير المؤمنين ثانية، وهذه علاقة وموازنة بين المصائب والمحن وبين المعجزات والكرامات، وهو إنّما ينشأ من تلك الخصوصية ويستمدّ من الميزة التي جعلها الله في تلك الروح المقدسة، أعني: اتصاله بالله، وهو نتيجة القرب والمحو في ذات الله وسعة ولايته إلى هذا الحدّ، حتى استولت روحه وهيمنت على كلّ الموجودات في جميع العوالم سواء من الناحية التكوينية أم التشريعية. وقد ذكرت لكم أنّ كبار أهل السنّة قد ذكروا ذلك في كتبهم، مثل ابن الأثير في **أسد الغابة** حيث يقول حينما يتعرّض لحياة أمير المؤمنين:

من جملة الأخبار الغيبية التي كان ينبيء عنها أمير المؤمنين: إخباره في أوقات متعدّدة عن استشهاده وأنّه محتوم لا ريب فيه، ثمّ يقول بعدها: من جملة الغرائب التي صدرت من أمير المؤمنين عليه السلام بعد استشهاده، أنّه كلّما رفع حجر عن الأرض في بيت المقدس كان يرى تحته دمّاً عبيطاً - وبيت المقدس مكان شريف وعظيم جدّاً، وأشرف الأمكنة بعد مكّة هو بيت المقدس، فأشرف البقاع مكّة وحرّم الرسول

وبيت المقدس - فكُلما كان يرفع حجراً عن الأرض، كان يرى تحته دماً عبيطاً، والذي ينقل هذه الرواية ليسوا الشيعة فقط، بل كذلك أهل السنة. وكذلك ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة يروي قصصاً عديدة حول هذا الباب... لماذا كل ذلك؟ لأنّ روح أمير المؤمنين قد استولت على جميع الأرواح وأحاطت بها حتّى أرواح الجمادات. حينئذٍ، لو يتّصل الإنسان بهذه الروح، ألا يمكنها أن تقدّم شيئاً للإنسان؟! لذلك علينا أن نستشفعه عند الله.

يقول ميثم التمار: خرجت ذات يوم من الكوفة مع أمير المؤمنين عليه السلام، حيث أتى الإمام إلى مسجد الجعفي وصلّى أربع ركعات، ورفع يده للدعاء: إلهي كيف أدعوك وقد عصيتك، وكيف لا أدعوك وقد عرفتك، حبك في قلبي وإن كنت عاصياً... إلى آخر الدعاء، وبعدها، خرج الإمام من المسجد وأنا كنت أتبعه، فاتّجه إلى الصحراء وسط نخيل الكوفة، وكنت أنا معه، ثمّ قال: يا ميثم! قف في مكانك، ورسّم لي على الأرض خطاً في الأرض وقال: لا تتعدّى هذا الخطّ، وقال: إياك أن تتجاوز هذا الخطّ، ومضى عنّي، وكانت ليلة مدلهمة فقلت: يا نفسي أسلمت مولاك وله أعداء كثير، فأبيّ عذر يكون لك عند الله، وعند رسوله إن أصيب أمير المؤمنين والله لأقفون أثره، ولأعلمنّ خبره، وإن كنت قد خالفت أمره، وجعلت أتبع أثره فوجدته مطلعاً في بئر إلى نصفه يخاطب البئر والبئر تخاطبه، فحسّ بي، فالتفت إليّ وقال: من؟ قلت: ميثم، فقال: ألم أمرك أن لا تتجاوز الخطّ! قلت: بلى يا مولاي ولكن خشيت عليك

من الأعداء، فلم يصبر قلبي ولم يطق تحمّل ذلك، فقال: أسمعتَ ما
قلتُ؟! قلت: لا يا مولاي فقال: يا ميثم:
وفي الصدر لباناتٌ

إذا ضاقَ بها صدري
نكتُ الأرض بالكفِّ
و أبديتُ لها سرِّي
فمهما تنبتُ الأرضُ

فذاك النبتُ من بذري

وها نحن الآن جالسون على مائدة أمير المؤمنين عليه السلام
وسفرته، فهذا الإيمان الذي عندنا وهذا القرآن الذي بحوزتنا وهذه الحياة
التي نتمتع بها كلّها ثمرة تلك المجاهدات ونتيجة تلك الولاية الكليّة
المهيمنة على أرواحنا ونفوسنا، وذلك بسبب اتّصال عالم برزخنا بعالم
ذاك الإمام وبرزخه. ونحن بحمد الله مؤمنون، وبدين الله مشرّفون، وكتابتنا
هو القرآن، فنأمل ونرجو أن يستجاب دعاؤنا ببركة الولاية.

ذكر كلّ الشيعة وكذلك ورد ذلك عن طريق أهل السنّة - حيث
رأيت ذلك في كتاب خطيب بغداد في تاريخ بغداد - أنّه لما خرج الإمام
إلى حرب صفّين من الحلّة والأنبار، وخرج جيش الإمام نحو صفّين قد
ابتلوا بالعطش، فلم يكن الماء موجوداً في الصحراء، جاؤوا إلى أمير
المؤمنين وقالوا: لا يوجد عندنا ماء، والجيش كلّ عطشان، قال الإمام:
نسير شيئاً ما، فلما قطعوا طريقاً أشار الإمام عليهم أن احفروا الأرض،
فحفروا الأرض وأزاحوا التراب إلى جهة أخرى، فقال الإمام: احفروا بعد،

فحفروا حتّى وصلوا إلى قطعة حجر، فكلمّا بذلوا جهدهم في قلعه لم يقدرّوا حتّى ولا على كسره، حيث كان الحجر صلباً وكبيراً، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ المعول بيده وضرب به على الحجر فانفلق الحجر الصلب، ونبع الماء من تحته وجرى على سطح الأرض، وأخذ الجيش يشرب بأكمله، وملئوا القرب، وسقوا الدوابّ والأنعام ورجعوا.

يذكر في تاريخ بغداد أنّ النّاس قبل أن يشربوا من هذا الماء تفرّقوا إلى ثلاث فرق؛ فرقة نظروا إلى الصحراء ورأوا السراب، فبدا لهم وكأنّه ماء، فذهبوا إليه ليأتوا به فوجدوه سراباً لا ماء فيه، وفرقة ذهبوا ليأتوا بالماء من الشطّ فقطعوا فراسخ ليعثروا عليه، وفرقة كانوا مع أمير المؤمنين، ومن جملتهم راوي هذه الرواية، وهو أبو سعيد العقيصيّ الذي يقول: رأيت هذه المعجزة على يد أمير المؤمنين وشربنا وتزوّدنا من الماء وذهبنا، ثمّ مضينا عدّة فراسخ أخرى واحتجنا الماء ثانية ولم نجده، فقلّت لجماعة من العسكر: فلنرجع إلى ذلك البئر ونملاً قيرنا ونحمل الماء ونأتي به، فجيئنا إلى تلك البقعة حيث كان هناك راهبٌ قريبٌ من مكان البئر يقطن في ديره، وكلمّا تفحصنا عن الماء وبحثنا عن البئر لم نره ولم نجده، فتعجّبنا كثيراً وأتينا الدير، وسألنا ذاك الراهب النصرانيّ الساكن في الدير، سألناه عن الماء الذي كان هنا؟ فقال: أيّ ماء!! قلنا: نحن شربنا الآن منه مع أمير المؤمنين عليه السلام حيث حفرنا وقلنا الحجر ونبع الماء حتّى جرى على وجه الأرض.. قال: لا يوجد هنا ماء قطعاً، فأنا أعيش هنا لسنوات طوال ولا يوجد أثر للماء هنا، قلنا له: هناك في تلك البقعة ودللناه على المكان، فقال: من الذي ضرب المعول؟ عرفناه له، فقال: هذا

البئر لا يطلع عليه إلا نبيّ أو وصيّ نبيّ، ولا يقدر على كشفه أحدٌ غير نبيّ أو وصيّ نبيّ، وهذا الشخص الذي يصاحبكم ويرافقكم إمّا نبيّ أو وصيّ نبيّ، فإنّ أتى ثانية هو يقدر على كشفه، وليس لأحد غيره أن يعرف مكانه!!

هل رأيتم كيف أنّ ماء الولاية ونفحاتها القدسيّة تؤثر على ماء المادّة والطبيعة، فهبوط مطر الرحمة من عوالم الغيب يؤثّر على هذا الماء العادي أيضاً وذلك بواسطة تنزّله عن قلب ذلك الإمام ونشره إلى جميع عوالم الإمكان.. وهذه القصّة نموذج من القصص التي يذكرها تاريخ بغداد، والحاصل هو أنّ كلّ شيء موجود فيه، فأمر المؤمنين هو قلب عالم الإمكان، وهو وليّ في صنع الله على الإطلاق، ونحن ندّعي أنّنا شيعة، بل حتّى مع كوننا مفرطين في ادّعائنا لذلك إلا أنّ التحقّق الواقعي للتشيع له شروطه وأبعاده، وحصول هذه الحقيقة في أنفسنا مشكّل جدّاً، ونحن نرجو الله أن يحوّل هذا الادّعاء المجازي إلى مستوى الحقيقة، ويجعل هذا المجاز قنطرة إلى وصول الحقيقة، نعم من المسلّم أنّنا محبّون له، ومأدبة أمير المؤمنين عليه السلام واسعة جدّاً، فهو يطعم كلّ المحبّين من تلك الأطعمة الملكوتيّة، ويشبعهم كلّهم ويرويهم، فمأدبة أمير المؤمنين ليست صغيرة، وأصناف طعامها ليس بالقليلة، فهو وليّ الله على الإطلاق، وكلّ أرزاق العالم تفاض من ناحيته.

بناء على ذلك، هذه الليلة نظهر قلوبنا من جميع ما ارتكبنا من الذنوب، وبشفاعة أمير المؤمنين نطلب من الله أن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يحول بيننا وبين اقتراف الذنوب، ولا يكلنا إلى أنفسنا في هذا العمر

القصير، وأنْ نضمَّ إلى جميع ما ندعو فيه طلب العافية. ف العافية تعني: الفلاح والاستقامة، فمن الممكن للإنسان أن يكون لديه عمر طويل، ولكن لا يكون ذلك عافية له! كأن يكون كثير المال، ولكن نفس كثرة المال تسبب له المشاكل والمصائب وضيق المعيشة والظلمة في القلب... بناءً على هذا فهو ليس عافية! وكذلك يمكن أن يكون الإنسان ذا وجهة ومكانة بين الناس، ولكن ذلك يجره إلى جهنم، وهذا ليس عافية، فالعافية تعني طهارة القلب من الأمراض النفسانية، وزيادة اليقين، وأن يكون حاله في تلك الساعة التي يريد أن يرحل فيها عن هذه الدنيا متبسماً، فيرحل عن هذه الدنيا وهو فرح، ولا يكون حزين القلب، ولا يكون متعلقاً بالدنيا ولا متوجّهاً إليها، وإنما يتوجّه إلى الآخرة ويهجر الدنيا.

في يوم من الأيام كان أمير المؤمنين يمرّ من أمام جماعة، وكان هؤلاء يتكلمون ويتباحثون في مسألة، أحدهم يقول: أفضل السنين هي السنة الفلانية.. وآخر يقول: أفضل الشهور هو شهر رمضان.. وواحد يقول: أفضل الأيام يوم القدر.. وواحد يقول: أحسن الساعات آخر ساعة من يوم الجمعة، قريب الغروب وهي ساعة استجابة الدعاء..

فوقف الإمام واستمع إليهم وقال: كل ما تكلمتم به جيد، ليس سيئاً، فهو صحيح، ولكن أفضل الأيام وأفضل الساعات وأفضل السنين الوقت الذي يريد فيه الإنسان أن يرتحل عن الدنيا ووجهه أبيض وقلبه فرحان، يكون متوجّهاً إلى ذاك العالم، لا أنه يكون متعلقاً بهذا العالم بحيث يرحل عنه وقلبه منقبض ومملوء بالحسرة والندامة! فأفضل الساعات للإنسان

وأحبّها إليه حينما يعطى الإنسان بيده صحيفة أعماله، ويدعوه إلى تلك العوالم المقدّسة، لا أنّه يخلد في الأرض.

فهذه الليلة ليلة ضربة أمير المؤمنين، وواقعاً هي مصيبة كبرى على جميع المسلمين. ففي هذا الشهر الشريف، وذات مرة أخبر الإمامين الحسن والحسين وسائر أولاده أنّه: كان ذات يوم عند رسول الله، فنظر إليه النبي وقال: يا عليّ أتعرف من أشقى الأوّلين؟ فقلت: عاقر ناقة ثمود، فقال النبي: يا عليّ أتعرف من أشقى الآخرين؟ فقال: من يخضب هذه من هذه، ومسح بيده على لحيّتي، بأن يضربك على اليافوخ، واليافوخ هو مقدّم الرأس، فالطفل الذي يولد يكون مقدّم رأسه لئلاّ في فترة طفولته ورضاعته، هكذا في لسان العرب يسمّى يافوخاً.

فقال النبيّ الذي يخضب محاسنك من يافوخك، ذاك هو أشقى الأفراد في آخر الزمان.

ومرّة كان أمير المؤمنين يخطب على المنبر ويقول: أنتم في هذه السنة تحجّون وإنيّ لن أكون معكم، ومرّة نظر إلى الإمام الحسن عليه السلام وقال: يا أبا محمّد! كم يوماً مضى من شهر رمضان؟ قال: يا أبتاه ثلاثة عشر يوماً، وقال يا أبا عبد الله! كم بقي من شهر رمضان؟ قال: سبعة عشر يوماً، مسح الإمام بيده على محاسنه وقال: والله قرب الموعد الإلهي الذي تخضّب فيه هذه المحاسن من أمّ رأسي.

في هذه الأيام رأى أمير المؤمنين رؤياً وقصّها للإمام الحسن، أنّ رأيتُ في الرؤيا أنّ جبرائيل واقف فوق جبل أبو قبيس في مكّة، فتناول حجّرين بيديه وجاء فوق الكعبة وضرب أحدهما بالآخر وكسرهما،

فتناثرت أجزاءهما على بيوت مكّة والمدينة، ما تفسيرها؟ قال الإمام الحسن عليه السلام، لم أدره يا أباي، قال الإمام عليه السلام: سوف أستشهد، وهذه المصيبة سوف تنزل كل العالم وسوف ترزء كل بيوت مكّة والمدينة بمصابي.

في ليلة التاسع عشر جاء إلى دار ابنته زينب، ففي هذا الشهر المبارك كان يفطر ليلة عند الإمام الحسن، وليلة عند الإمام الحسين، وليلة عند ابنته زينب زوجة عبد الله بن جعفر، وورد في روايات متعدّدة أنّ الإمام كان لا يأكل أكثر من ثلاث لقم، ويسألونه لماذا؟ يقول: سيأتي أمر الله وما أريد أن أرتحل عن الدنيا وألقى الله وأنا مملوء البطن، فكان في ليلة التاسعة عشر في بيت أم كلثوم، وهي التي تروي هذه الرواية، تقول:

جاء أبي إلى البيت وصلى ركعات وصلى صلاة المغرب، فأحضرت له مائدة الطعام ليفطر، وكان قرصين من خبز من الشعير، وقصعة من اللبن وقصعة فيها ملح، فصلّى عدّة ركعات ثمّ نظر إلى المائدة وقال: بنية! أحضرتي في هذه المائدة نوعين من الطعام، أما تعلمين أنّي أتبع أخي وابن عمّي رسول الله صلى الله عليه وآله؟ يا بنية! الدنيا في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، وكلّما كان أكل الإنسان ولبسه في هذه الدنيا أكثر راحة ولذّة سوف يكون وقوفه للحساب عند الله يوم القيامة أكثر وأطول، فقال الإمام: لا آكل حتّى تأخذين أحد الطعامين، ورفعت قصعة اللبن، والإمام أفطر على شيء من خبز الشعير والملح، واشتغل بالصلاة، وقد أكثر الإمام في هذه الليلة من الصلاة، ولم يخرج الإمام في هذه الليلة من البيت خلافاً لما كان يفعله في الليالي السابقة، وكان مترقباً وكأنّه كان

ينتظر أمراً يصل إليه، وكان يتلو سورة يس، وكان في بعض الأحيان يقول:
 لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتارة يقول: اللهم بارك لي في
 الموت، قلت: يا أبت! الظلام في هذه الليلة حالك لا كسائر الليالي
 السابقة، ما المسألة؟ قال: أمر الله عن قريب يصل أو يأتي.. قلت: يا أبت
 أي أمر لله؟ قال: في صبح هذه الليلة سوف تظهر علامات الوعد الذي
 وعدني به رسول الله، فكان يخرج من الحجرة وينظر إلى السماء ويقول:
 هي هي والله ما كذبت ولا كذبت، والله هي الليلة التي وعدنيها رسول
 الله هي الليلة.. هكذا كان الإمام بين راعع وساجد وقائم، يتلو القرآن إلى
 أن قارب أذان الصبح، فأذن ابن نباح وهو مؤذن الإمام، فخرج الإمام من
 الحجرة وجدد الوضوء، وتهيأ للذهاب إلى المسجد، فقلت: أبتاه! إن
 حالك هذه الليلة يختلف عن سائر الليالي، فإذا تظن أنه ينزل بك مصيبة
 في هذه الليلة قل لـ جعدة يذهب ويصلي في المسجد [فجعدة ابن أخت
 الإمام فهو جعدة بن هبيرة المخزومي ابن أم هاني، وأم هاني هي أخت
 الإمام، وكان جعدة من كبار رجال الدهر].

فقال الإمام: هل يمكن الفرار من أمر الله؟ فهو قضاء إلهي، وأنا
 ذاهب إلى طريق الجنة والسعادة، ولا يمكن التخطي عن قضاء الله، فأراد
 الإمام أن يخرج من البيت، وكان هناك عدة إوز، فأخذوا بأطراف ملابس
 الإمام بمناقيرهم وكانوا يصوتون ويصيحون، فخلاهن الإمام وقال: دعوهن
 فإنهن صوائح تتبعها نوائح، فخرج الإمام من المنزل وأنشد قائلاً:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لاقبكا

ولا تغرّ بالدهر وإن كان يوافيك

كما أضحكك الدهر كذاك الدهر يبكيك^(١)

جاء الإمام إلى المسجد، وكانت مصابيح المسجد مطفأة، فصعد المئذنة وأذن حتى سمع جميع أهل الكوفة، فنزل المئذنة وأيقظ الناس للصلاة: الصلاة الصلاة.. قوموا من نومكم أيها المؤمنون.. الصلاة الصلاة..

خلّوا سبيل المؤمن المجاهد في الله لا يعبد غير الواحد
ويوقظ الناس إلى المساجد

قوموا قوموا.. فقد حان وقت الصلاة، إلى أن مرّ على ابن ملجم، ابن ملجم وشخصين آخرين اسمهما: وردان وشيبب، حيث باتا في المسجد لقتل الإمام، وكانوا ثلاثتهم حاملين السيوف الحادة المسمومة. وفي تلك الليلة كان حجر بن عديّ قد بات للصبح في مسجد الكوفة مشتغلاً بالعبادة، فقرب أذان الصبح فنظر إلى الأشعث بن قيس وهو يقول: يا ابن ملجم قرب أذان الصبح، قم! حتى لا تفتضح، قال: لمّا سمعت هذا الكلام منه، اضطرب قلبي وقلت: ويحك يا أعور أتريد قتل عليّ؟ فقممت وأتيت بيت أمير المؤمنين حتى أخبره بما أضمره هذه الليلة من سوء فعلهم، فرجعت إلى المسجد ورأيت الأمر قد مضى، والناس يتوجهون إلى المسجد من كلّ النواحي، وأمير المؤمنين عليه السلام واقع

(١) جاء في بحار الأنوار المجلد ٤٢ صفحة ١٩٠ هكذا:

أشدد حيازيمك للموت فإنّ الموت لاقبك
ولا تجزع من الموت إذا حلّ بواديك
كما أضحك الدهر كذاك الدهر يبكيك

في محرابه ويجمع تراب المحراب ويضعه على أمّ رأسه وينادي: فزتُ وربّ الكعبة، أي إنّ هدفي وغايتي هي هذه الساعة وهذه اللحظة، منها خلقناكم^١ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى% (١) وجبرائيل ينادي بين السماء والأرض:

تهدّمت والله أركان الهدى

وانظمت أعلام الهدى

وانفصمت العروة الوثقى

أيّها الناس! قتل عليّ المرتضى.. قتل ابن عمّ المصطفى.. قتل وصيّ

المجتبي..

وهبّت الرياح والعواصف، واطلمّت السماء، واصطفقت أبواب المسجد، ووصل صوت نداء جبرائيل المنبعث بين السماء والأرض إلى منزل زينب وأمّ كلثوم والحسين وسائر أولاده... نادوا بأعلى أصواتهم:

وا أبتا! وا أبتاه! وا عليّاه! وا أمير المؤمنيناه!

وأنتم كذلك، بقلب واحد، وبعد هذه الحالات التي تعيشونها وتحسّون بها، ضمّوا أصواتكم إلى أصواتهم، فأمر المؤمنين والدكم، قال رسول الله: أنا وعليّ أبوا هذه الأمة، فاندبوا ونادوا في عزاء أمير المؤمنين حتّى تشتركوا معهم، وقولوا: **وا عليّاه! وا محمّدهاه! وا أمير المؤمنيناه!**

[ثمّ يشرع العزاء ومراسم الإحياء]

آثار استجابة الدعاء ظاهرة.. استشفعوا بأمر المؤمنين إلى الله.

(١) سورة طه (٢٠) الآية ٥٥.

قولوا عشر مرّات بصوت عال: الهي العفو...

افتحوا القرآن وضعوه فوق أيديكم:

اللهم إنني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر
وأسمائك الحسنی، وما يخاف ويرجى، أن تجعلني من عتقائك من
النّار.

أغلق القرآن وضعه على الرأس:

اللهم بحقّ هذا القرآن وبحقّ من أرسلته به، وبحقّ كلّ مؤمن
مدحته فيه، وبحقّك عليهم فلا أحد أعرف بحقّك منك

عشر مرّات: بك يا الله

إلهي بمحمّدٍ

إلهي بعليّ

إلهي بفاطمة

إلهي بالحسن

إلهي بالحسين

إلهي بعلي بن الحسين

إلهي بمحمّد بن عليّ

إلهي بجعفر بن محمّد

إلهي بموسى بن جعفر

إلهي بعليّ بن موسى

إلهي بمحمّد بن عليّ

إلهي بعليّ بن محمّد

إلهي بالحسن بن عليّ

إلهي بالحجّة

اللهمّ عظم البلاء وبرح الخفاء وانكشف الغطاء وانقطع الرجاء
وضاقت الأرض ومنعت السماء وإليك يا ربّ المشتكى وعليك العوّل
في الشدّة والرّخاء، صلّ على محمّد وآل محمّد أولي الأمر الذين
فرضت علينا طاعتهم وعرفتنا بذلك منزلتهم فرّج عنّا بحقّهم فرجاً
عاجلاً قريباً كلمح البصر أو هو أقرب من ذلك، يا محمّد يا عليّ يا
عليّ يا محمّد اكفياي فإنكما كافيائي وانصراني فإنكما ناصراني يا
مولاي يا صاحب الزمان الأمان الأمان الغوث الغوث الغوث
العجل العجل العجل الساعة الساعة الساعة.

اللهمّ اعف عنّا.. واغفر لنا جميع ذنوبنا.. واقبل توبتنا في هذه الليلة
العظيمة.. واستجب جميع دعواتنا.. وثبّت أقدامنا على صراطك المستقيم..
ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً في هذه الهزاهز وفتن آخر الزمان..
ونورّ قلوبنا بنور اليقين.. واشرح صدورنا بنور الإسلام.. اللهمّ أدخلنا في
كلّ خير أدخلت فيه محمّداً وآل محمّد.. وأخرجنا من كلّ سوء أخرجت
منه محمّداً وآل محمّد.. واقض حوائجنا الشرعيّة.. وأرض عنّا من له حقّ
علينا.. واشف مرضانا.. واغفر لموتانا.. وثبّتنا أيدينا بولاية أهل البيت..
واجعل القرآن والعترة نصب أعيننا للعمل.. ولا تحرمنا يوم القيامة من
شفاعة محمّد وآل محمّد..

اللهمّ عجلّ فرج صاحب الزمان.. واجعلنا من المنتظرين لمقدمه
الشريف.. ونورّ أبصارنا بجماله..

نسألك اللهمّ وندعوك ونقسم عليك بوليّك الأعظم الحجّة ابن
الحسن المهديّ العسكريّ وباسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجل الأكرم يا
الله..

وإلى جميع شيعة أمير المؤمنين عليه السلام الذين ارتحلوا عن هذه
الدنيا الفانية وبالأخصّ والديكم ومن له حقّ عليكم.. الفاتحة.